مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة على وفاته

الأستاذ محمود أبو رية

ينقضي بانسلاخ اليوم التاسع من هذا الشهر (مايو) خمسة عشر عاماً على وفاة نابغة الأدب وحجة العرب السيد مصطفى صادق الرافعي ، فقد انتقل رحمه الله إلى الرفيق الأعلى في فجر يوم الاثنين الموافق ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، وانقطع من هذا اليوم وحي البيان العربي الذي كان يتنزل على قريحة هذا البليغ الكبير فتخرجه آيات من البيان العربي لا تكاد تتفق إلا للأفذاذ من البلغاء الملهمين

وإذا كان قد جاء في الأثر أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد المسلمين دينهم ، فإنه سبحانه يبعث بين الحين والحين من يجدد للغة العربية بلاغتها ويحيي في كل عصر معجزتها ، ذلك أن حكمة الله لا تذر هذه المعجزة بغير أن يرسل لها من يحامي عنها ، ويجدد فيها

ولا يستريب أحد أن هذا النابغة قد بعثه الله في هذا العصر ليجدد من بلاغة البيان العربي ، ويضيف من وحي قريحته إلى التراث الأدبي

وقد كان هو على يقين من أنه رسول بياني أرسل لتأييد بلاغة القرآن ، ويحيي آدابه وأخلاقه التي هي حصون الإسلام ، وأن عليه رسالة ثقيلة لابد له أن يؤديها على وجهها ، مهما ناله من المحنة في سبيلها ، وقد أجملها رحمه الله في قوله : —

« القبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم إنه يخيل إلي دائماً : أني رسول لغوي للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه »

وقد عاش ما عاش يجاهد في سبيل هذه الرسالة لا يمل ولا يلين ، وناله في هذا الجهاد ما ينال الرسل في جهادهم من أذى ، وأصابه ما يصيبهم من إرهاق حتى لقي ربه راضياً مرضياً

وإذا كنا اليوم لا نستطيع إشباع نهم القول في نواحي هذه الرسالة لأن المقام لا يحتمل ذلك ولا يتسع له ، وهذه الكلمة التي ننشئها لم تكن إلا من قبيل الذكرى في مناسبة عابرة ، وكان لابد لنا أن نمطر كلمتنا بشذا من أريج حياته ، فإنا نأتي بذرة ومن جليل أعماله التي كان لها أثر خالد في الأدب العربي

في أوائل هذا القرن ظهرت في مصر (بدعة لغوية) نادى بها ودعا إليها نفر من كتابنا ، وكانت هذه البدعة تدعو إلى (تيسير اللغة العربية) بأن تدخل فيها من الألفاظ السوقية وتمزج نراكيبها بالمصطلحات العامية حتى تخرج لغة الكتابة في أسلوب يجمع كل اللهجات المصرية فيفهمها الناس جميعاً

وكان يؤيد هذا الرأي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد باشا بما ينشره في (الجريدة) التي كان يتولى تحريرها

وما لبثت هذه البدعة أن أنجبت مولوداً سموه (الجديد) ومعناه أن تكون لنا عربية جديدة لا نجري في بيانها على أساليب العرب الفصحاء ، وأن لا نتقيد فيما نكتب بأصول البلاغة العربية وجعلوا الميراث الأدبي البليغ (قديماً) يجب أن يذهب بذهاب أهله ، ولأن هؤلاء الدعاة لم يجدوا أمامهم من يذود عن هذا الميراث ويدافع عن لغة القرآن أقوى من الرافعي فقد تحاموه زعامة هذا الأدب الذي أصبح في رأيهم (قديماً) ونشبت بينه وبينهم معارك طاحنة كان ينازلهم فيها وحده (تحت راية القرآن) في حين أنهم كانوا جمعاً كبيراً ذا قوة وجاه وسلطان ، ولم يزل يكافحهم بشباة قلمه البليغ حتى قضى على تلك البدعة وما تحلت وكتب الله النصر للغة كتابه

ومن عجيب الأمر أنك ترى اليوم بعض من كانوا يدعون إلى هذه البدع قد أصبحوا من أشد الناس تعصباً لأساليب العربية في بيانها ولغتها

ومن مآثره التي سجلها له الأدب العربي في صحائف مفاخره أنه لما أنشئت الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ لم يكن

من مناهجها دراسة آداب اللغة العربية فنضب فضية مضرية وحمل حملة صادقة على إدارة الجامعة لكي تتدارك تقريطها العظيم في جنب الآداب العربية، وما لبثت هذه الإدارة أن عادت إلى الصواب وقررت تدريس آداب اللغة العربية، ولا تزال هذه الدراسة تنمى وتزدهر.

ولم يقف جهاده وفضله في هذا السبيل عند ذلك النصر؛ بل دفعه اعتزازه بلغته وتمكنه من آدابها إلى أن يخرج في هذه الآداب وتاريخها كتاباً بعد أن لم يكن لها كتاب شامل، فأظهر في سنة ١٩١٢ كتابه الخالد (تاريخ آداب العرب) ذلك الكتاب الذي لم يؤلف في موضوعه مثله؛ وبحسبك أن ترى شيخ المجلات العربية (المقتطف) التي كانت تزن المؤلفات العربية بميزان دقيق قد عقدت له يوم صدوره فصلا ممتعا من إنشاء محررها العالم الجليل الدكتور يعقوب صروف تحدث فيه عن مزايا هذا الكتاب وفضائله ختمه بهذه العبارات الدقيقة:

«والكتاب حافل بالفوائد اللغوية والأدبية والنتائج الفلسفية، ولغته في المقام الأول من الفصاحة، وهو حقيق بأن يدعى كتاب الشهر بل كتاب السنة، لأننا لا نتذكر أننا رأينا منذ سنة إلى الآن كتابا عربيا اقتضى جمعه وتبويبه واستنباط أدلته ما اقتضاه هذا الكتاب، وعسى أن يجد من إقبال القراء عليه ما هو أهل له» (١)

ولم يكد الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد باشا يطالع هذا الكتاب حتى أنشأ من أجله مقالا ضافيا ملأ به صدر (الجريدة) (٢) تجزى منه بما يلي

قرأنا هذا الجزء فأما نحوه فعليه طابع البداوة في بابه يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما وأخذ بمدذلك يتصرف فيه تصرفا حسناً. وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء الأول إلا بعد درس طويل وتعب جم

وأما أسلوب الرافعي في كتابته فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين، فكأني وأنا أقرؤه أقرأ من قلم البرد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظاً سابقة مفصلة عليها لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة تؤدي بعض أجزائها، وإنا لنكبر غرض الرافعي ونشكره على ما حققه»

أما أمير البيان شكيب أرسلان رحمه الله فقد جرد له مقالا بليغاً حلى به صدر جريدة «المؤيد» (٣)، مهد فيه بفذلكة نفيسة في دراسة الأدب العربي ثم استطرد إلى الإشارة بفضل هذا الكتاب وكان مما قاله:

«... كتب تاريخ الآداب العربية، ولم تكن الآداب وقائع تؤرخ ولا أدوارها عند العرب مما يسهل تتبعه وتبصر أعلامه على نصب من تآليف سابقة، بل هي أعلام طامسة ودروس دارسة، فرع لهاذلك الكاتب الضليع طنوب التحقيق حتى جمع من عظامها المبثوثة ورمامها المبعثرة هيكلا صحيحاً. وزاد بهجته ووفر شطر حسنه ما أوتيه من ملكة العربية الفصحى والتمكن من ناصية التعبير عن كل ما أراد، فلو كان هذا الكتاب خطبا محجوبا في بيت حرام إخراجه منه لاستحق أن يحج إليه، ولو عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار لكان جديرا بأن يعكف عليه» (٤)

وقد صدر من هذا الكتاب جزء ثان في «إعجاز القرآن» نجتزي في بيان قدره، بما وصفه سعد زغلول به، وهو شيخ زعماء مصر، وأبلغ سياسي في هذا العصر، وهاك جملا من خطاب طويل أوصله إلى الرافعي من مسجد وصيف مؤرخ ١ / ١١ / ١٩٢٦

«... ولكن قوما أنكروا هذه البداهة (أي عجز أهل

---

(١) ص ١٩٨ ـ ١٩٩ من جزء فبراير سنة ١٩١٢ المجلد (٤٠)

(٢) الجريدة الصادرة في ٤ مارس سنة ١٩١٢ وص ٢٨٤ الى ٢٨٩ من كتاب المنتخبات لسادة أحمد لطفي السيد باشا

(٣) جريدة المؤيد الصادرة في ٩ فبراير سنة ١٩١٢

(٤) كانت هذه الفذلكة جواباً عن سؤال منا وارجع في ذلك الى الصفحات ٧ ـ ١٢ من كتاب (رسائل الرافعي) الذي نشرناه في سنة ١٩٥٠ أبو رية

البيان من الإتيان بمثل القرآن) وحاولوا ستره بغلاء كتابكم « إعجاز القرآن » مصدقاً لآياتها ، مكذباً لأفكارهم ، وأيد بلاغة القرآن وإعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان مستمد من روحها ، كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم .

فلكم على الاجتهاد في وضعه والعناية بطبعه شكر المؤمنين وأجر العاملين والاحترام الفائق »

وهذا الخطاب لم يكتب مثله هذا الزعيم الكبير لأحد غير الرافعي ، ولا جاء في التاريخ كله كلمة في وصف كتاب مثل هذه الكلمة البليغة

ومما يملأ القلب حسرة والنفس أسى أن قضى الرافعي رحمه الله قبل أن يتم هذا الكتاب ، ومما يزيد في الأسى ويضاعف في الحسرة أنا لم نجد من أدبائنا الكبار من يتقدم ليحمل هذا العبء ويقوم بأداء هذا الواجب الذي هو في الحقيقة دين في أعناقهم جميعاً لا تبرأ ذمتهم منه حتى يؤدوه كاملا ، وهم غير معذورين ، وبخاصة فإن الأمور الآن ممهدة والطرق معبدة ، وللأدب العربي عديد من الكليات بالأزهر والجامعات

والحسرة في مثل هذا الأمر لا يضارعها إلا حسرة أخرى على تفسير القرآن الحكيم الذي أخرجته قريحتا الإمامين الجليلين محمد عبده والسيد رشيد رضا رحمهما الله فإنا — وا أسفا — لم نجد (حالياً) من علمائنا (وهم ألوف) قد نهض لإتمام هذا التفسير ، وكأن الأزهر « المعمور » قد عقمت أمه فلم تلد بعد الأستاذ الإمام محمد عبده أحداً . رحمه الله ورحم تلميذه النجيب السيد رشيد رضا

ولقد كنا قرأنا منذ أكثر من ربع قرن في المقدمة التي أنشأها الدكتور طه حسين باشا لكتاب فجر الإسلام ، أنه فرغ من وضع الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي فقرحنا وانتظرنا أن تشرف علينا غرة هذا الجزء وما يليه ، ولكن انتظارنا ذهب هباءً

ولقد كان للرافعي أسلوب في البلاغة خاص به بائن بنفسه لا يشاركه فيه أحد من الكتاب ، يعرفه كل من وقف على أساليب الكتابة العربية حتى لو أخفاه عن الناس

كنت مرة مع الأديب الكبير عبد الرحمن البرقوقي نجلس على أحد الأندية بالقاهرة في سنة ١٩٢١ ومر بنا بائع الصحف فتناول منه رحمه الله (جريدة الأخبار) وأخذ يقرؤها وإذا به يجد في صدرها كلمة أخذت نصف عمود عنوانها : (عجيبة الغربة — جنود سمد) ما كاد يقرؤها حتى دفع لي الصحيفة وقال : ترى لمن هذه الكلمة .. ودفع لي الجريدة فقرأتها وقلت له : إن الظن الغالب أنها للرافعي ولم يكن قد وضع اسمه عليها . فقال هي له من غير شك ولا يستطيع غيره أن ينشئها (٤)

وكان رحمه الله يعنى بتجويد عباراته ويبالغ في صقلها حتى تخرج في أروع صورة من البيان العربي ، وكان لا يترخص في ذلك ولا يتسهل

قلت له مرة بعد أن ظهر كتاب (حديث القمر) إن طائفة كبيرة من القراء لا تبلغ أفهامهم بعض عبارات هذا الكتاب ، وارأى أن تنشئ كلاما لا يعلو على أفهام القراء ! فغضب وقال : أتريدني على أن أنزل بأسلوبي إلى إفهام عامة القراء ؟ إني أريد أن يرتفعوا هم إلي لا أن أهبط أنا إليهم ، ولأن يكون لي ألفان من القراء الذين يفهمون أساليب العربية العالية خير لي من أن يكون لي عشرات الألوف من عوام القراء

وجرى بيني وبينه مرة حديث عن أسلوب المغفور له الدكتور زكي مبارك فكان من قوله : إنك مهما قرأت له فإنك لا تكاد تجد من إنشائه عبارة بليغة يشرق منها نور البيان ، وهو لا يعتبر شاعرا ولا ناثرا ! فقلت له : وماذا يكون إذن بيت كتاب البيان فقال (سمه نثرورا !) وهذه اللفظة التي استمرتها قد قاسها على لفظة غمرور . وقد كان مجتهدا في اللغة وله رأي في القياس اللغوي مبثوث في كتبه ، وقد نشرناه في الرسالة على ما نذكر

وإذا كان الدكتور زكي مبارك رحمه الله في رأي سيد البلغاء (نثرورا ! فسترى ماذا تكون درجات أولئكم الذين يظنون

(٤) يرجع الى الصفحتين ٧٧ و ٧٨ في كتاب (رسائل الرافعي) تجد سورة هذه الكلمة البليغة